

عظماء قهروا اليأس

أحمد عرابي



يوسف الحمادي



36

U7

عظماء قهروا اليأس

أحمد ذكي كراي

بقلم

يوسف الحمادي

الناشر

مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - البجالة
المنامة

(١)

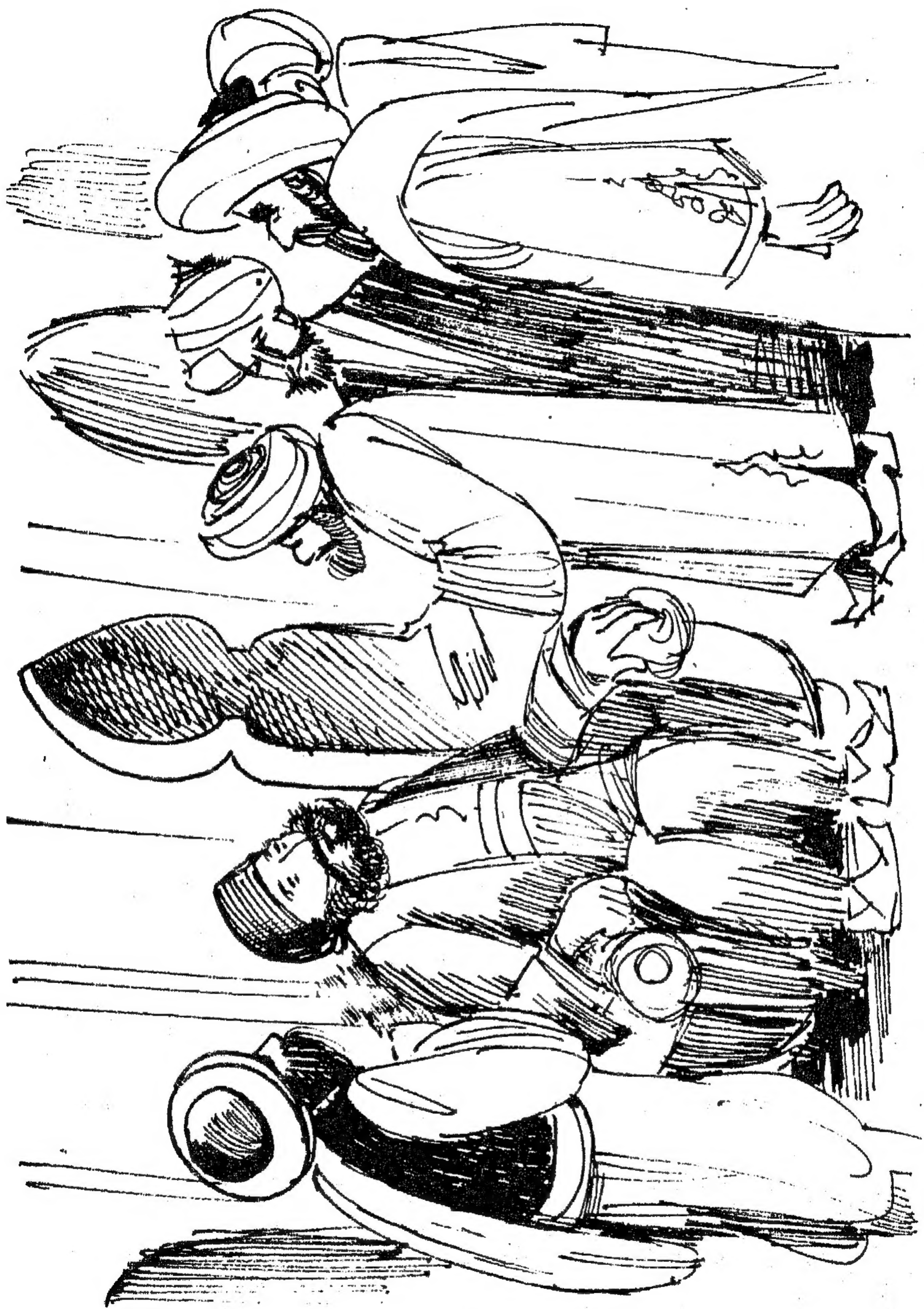
مولد الطفل أحمد عرابي

على مقربة من الزقازيق عاصمة الشرقية تقع قرية صغيرة ، تسمى « هرية رزنة » .. كانت هذه القرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر تعيش في صمتها وعزلتها ، لا يتردد اسمها على الألسنة ، ولا يعرف أكثر الناس اسمها ، وكانت حياة الفلاح فيها كحياته في غيرها من قرى الريف المصرى البائس .. جلابب أزرق سليم أو ممزق ، ورجلان حافيتان أو في نعل خشب من جلد البقر ، يجففه الفلاح ويسويه بيده ، وجسم نحيل معروق العظام ، تبدو عليه مظاهر الجهد وسوء التغذية ؛ فهو يعمل في الليل والنهار ، ثم تعود ثمار عمله على أصحاب الأرض التي يزرعها لهم ، فإذا زرع شيئاً منها لنفسه وقع فريسةً للملتزمين الذين يجمعون الضرائب ، يستغلونه ويلهبون ظهره بالسيّاط إذا تلاكأ أو راوغ أو عجز عن أداء ما فرض عليه .

ومع الجوع والبؤس اللذين يعيشُ فيهما هذا الفلاحُ ظلامٌ
غالبٌ من الجهل ، وأوبئةٌ فتاكةٌ تهدد حياتَه وحياةَ أولاده ،
وكوارثٌ من الجراد والجفاف والفيضانات تقضى على زرعِه ... ولم
يكن يَشِدُّ قليلاً عن هذا اللون السائد من العيش إلا فئة قليلة من
الفلاحين ، لانت لهم الحياةُ بعض اللين ، ولم تَقْسُ عليهم هذه
القسوة الأليمة .

ومن هؤلاء الفلاحُ المفتوح « محمد عرابي » والد الفلاح البطل
« أحمد محمد عرابي » الذي يتحدث هذا الكتاب عن شيء من
بطولته وعظمته ، كان هذا الوالدُ يقرأ ويكتب ، وله حظُّه من
الثقافة الدينية ، ومن الخبرة بالناس والحياة ، كما كان له حظُّه من قوة
الشخصية ، وشرف النسب ، والميل إلى مساعدة الفلاحين
والدفاع عنهم ؛ ولهذا اختارته عشيرته في « هرية رزنة » شيخَ حصّةٍ
لها ، وساعد ذلك على اتصاله برجال الشرطة والإدارة ، ومعرفة
الكثير مما يتصل من قريبٍ أو بعيدٍ بالسياسة وأخبار الولاية والحكام .
وكان مما وعته ذاكرته عن « محمد علي » أن مصرَ هي التي جعلته
والياً عليها ، فقد ثار أبناء هذا البلد الطيب على الحاكم التركي الذي
ولاهُ الخليفةُ العثمانيُّ عليهم ، وعزلوه عن منصبه ، وجاءوا

صورة لخمدة على يلبسه المصريين الكرك والقفطان وينادون به واليا عليهم



« بمحمد على » ، فألبسوه « الكرك » والقفطان ، وهتفوا به
والياً على مصر ، وكان في مقدمتهم الزعيمان الشعبيان الكبيران :
عمر مكرم ، وعبد الله الشرقاوى ومع ذلك نسي هذا الوالى
جميل المصريين عليه وعلى أسرته ، وفضل الأتراك عليهم ..

ومما وعته ذاكرة هذا الفلاح أيضاً أن الوالى الجديد كان شديد
الطموح يتعلق بخياله وراء أبعد الآمال ؛ فقد كان يحلم بأن يكون
صاحب إمبراطورية كبيرة ، قاعدتها مصر ، يتربّع على عرشها ،
فلا يشركه أحد ، ولا ينازعه منازع ، وأنه فى سبيل هذا الحلم
أراد أن يتخلص ممن يخشى منازعتهم له من المماليك ، فأولم
لكبارهم وليمة فخمة فى القلعة ، دعاهم إليها ، فتسارعوا يظنون
أنهم مدعوون إلى حفل تكريم رائع مهيب ، ولما تكامل
عددهم فيها غلقت أبواب القلعة ، وانهاى عليهم جنود الوالى ،
فذبّحوهم فى أشنع مجزرة عرفها التاريخ .

ومما وعته ذاكرته كذلك أن هذا الوالى حين فرغ من المماليك
اطمأن ، وجدّ فى إنشاء جيش ضخم يهيب له إقامة الإمبراطورية
التي يحلم بها ، وسخر كل موارد البلاد لذلك ، ولكن مدارسه
الحربية كانت وقفاً على الأجانب من الأتراك والشركس والأرمن

واليونانيين والأرمناءود .. وكان « محمد عرابي » يكره أيام عباس الأول حفيد محمد علي ، ويذكر أن عصره كان عصر ظلام وانتكاس ، وأن الفترة التي قضاها في الحكم بين سنتي (١٨٤٨ ، ١٨٥٤) كانت فترة هدم وتخريب ؛ فقد كان مسرفاً في جهله وتعصبه ، فأغلق الكثير من معاهد التعليم ، ومن المدارس الحربية ، وجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة ، ونقل عددًا من علماء مصر إلى السودان ، وبذلك أطفأ البقية الباقية من الشعلة التي كان قد أضاءها جدّه .. كل هذا كان يعرفه هذا الفلاح ، ويذكره في دهشة وألم .

ويحكى أهل « هرية رزنة » عنه أنه كان من « الأشراف » الذين ينتسبون إلى بيت النبي ﷺ ، ويعتزُّ هو بهذا النسب ، ويحتفظ بسلسلته التي تمتد من جدِّ إلى جدِّ ، حتى تنتهي إلى الحسين بن السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنه وعنهما .

ومن أجداده في هذه السلسلة السيد صالح البلاسي ، وهو — كما تذكر أسرة عرابي — من « بلاس » إحدى القرى ببطائح العراق ، وأول من قدم من أجداده إلى مصر ، وقد أعجبته ، فاستقرَّ بها ، وتزوج من السيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعي الصيادي .

وإذا صح هذا النسبُ كان الرجلُ غريبًا ، ينتمى إلى البيت النبوى ، وله من نُحُلِّقه الطيب ما يوحى بذلك ، فهو متدينٌ ، صافى النفس ، شفيقٌ بأهل قريته ، حريصٌ على السعي في خيرها .. ومن مآثره في قريته أنه أنشأ بها كُتَّابًا لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، وجدَّد مسجدها ، ورَتَّب فيه رعوَسَ الفقه بعد صلاتي العصر والعشاء .

* * *

في هذا الجو الذى عاشت فيه « هرية رزنة » ، وفي ظل الفلاح الطيب المتفتح « محمد عرابى » وُلِدَ الطفلُ « أحمد محمد عرابى » ، وكان ذلك في مارس سنة ١٨٤٨ . وتلقاه أبوه كما تلقى أخاه « محمدا » من قبله ، وكما يتلقى الفلاحون أطفالهم .. شكر الله على نعمته، وحمدَه على سلامة زوجته ، ثم تركها للنساء يعتنين بها ، وانصرف إلى حياته التى ألفها فى القرية ، ولم يقدِّر أن هذا الوليد الذى أهدى إليها سيصبح من زعماء مصر ، وممن كان لهم أثرٌ بارز فى حياتها وتاريخها الحديث .

* * *

(٢)

حظ الطفل من التعليم

تفتحت عينا الطفل « أحمد عرابي » على الحياة في بيت أسرته ، فرأى بيئة ريفية خالصة ، فيها الحظيرة والماشية ، وفيها المحراث والنورج والطنبور وغيرها من آلات الزراعة ، وبها من يحلب ، ومن يرعى ، ومن يزرع ، ورأى في أبيه فلاحا أصيلا ، واعيا ومتفتحا ، له خبرته وثقافته ومكانته في « هرية رزنة » ، وشاهد مجالسه مع الفلاحين ، وبين رجال الإدارة ، بما له فيها من هبة ووقار ، وصوت واضح عال ، ورأي صائب يدل على ذكاء وفهم وتقدير لما يعاني الفلاحون من حوله .. وصفه ابنه في مذكراته ، فقال عنه :

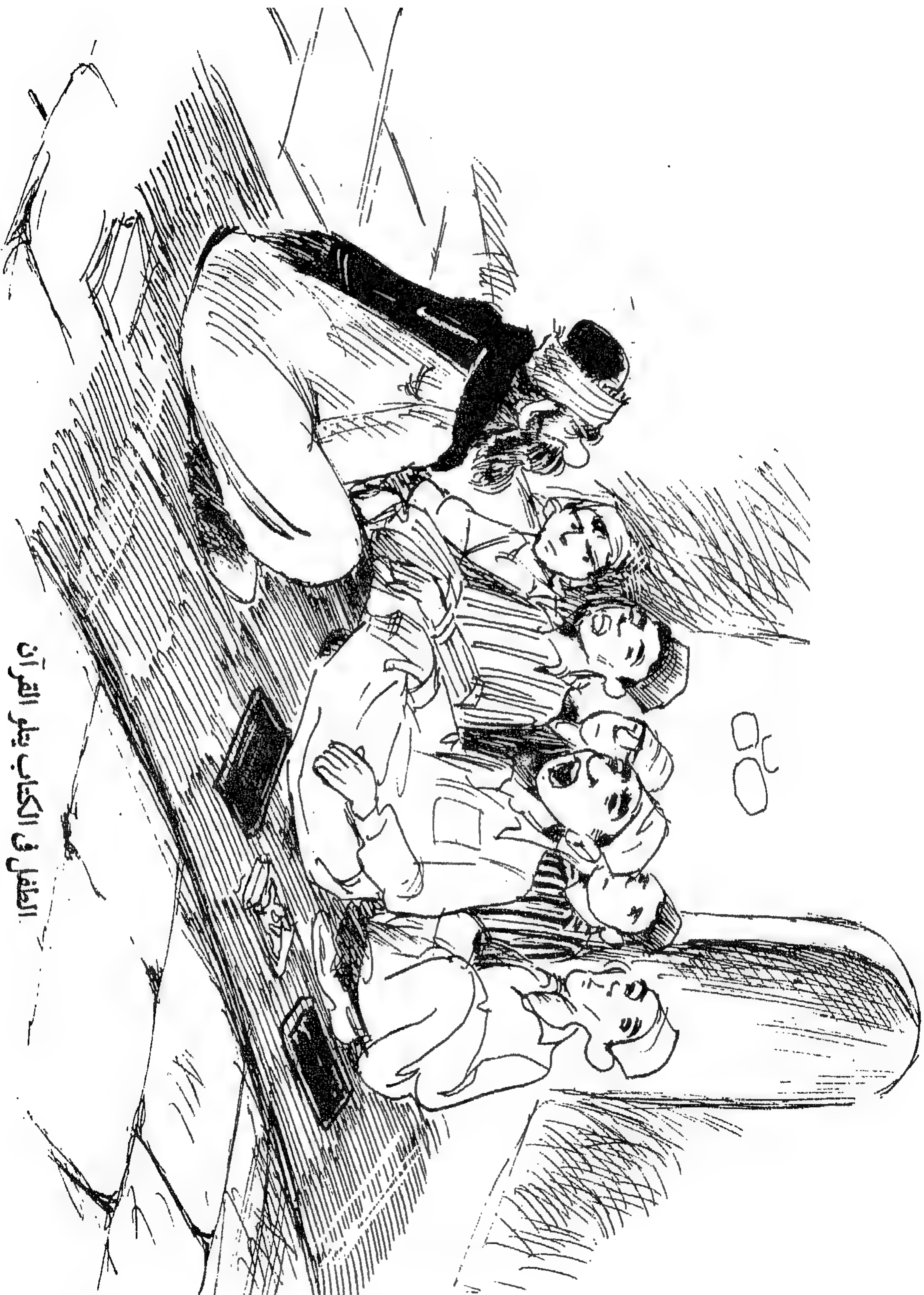
« كان شيخا جليلا ، عالما ورعا ، تقيا نقيا ، موصوفا بالعفة والأمانة » .

وانتقلت عينا الطفل من بيئته في دار أبيه إلى القرية ، بما يتهددها من بؤس ، وأمراض ، وحياة مهينة ذليلة ، وأثر ذلك كله في عقله

ومشاعره ، فنشأ صريحاً ، ذكياً ، عزيز النفس ، عطوفاً على
البائسين .

وشب بين أمثاله من أطفال « هرية رزنة » ، فلاحاً صغيراً ،
يشرّكهم في لعبهم ، وسباقهم ، ومغالبة بعضهم لبعض ،
ويقدّمونه على أنفسهم ، لأنه ابن شيخ القرية ، ولأنه يحبهم ، ولما
يمتاز به جسمه من امتلاء في قوة وصلابة .

وكان يذهب معهم إلى الكتاب الذي أنشأه أبوه ، ومعه لوحه
وقلمه ودوائه ، فيجلس ، كما يجلسون على الأرض ، أو يكرّمه
فقيه الكتاب وبعض النابهين ، فيجلسهم على الحصير ، ويردّد مع
الأطفال ما يتلو عليهم الفقيه من آيات القرآن الكريم ، ويكتب في
اللوح ما يكتبون ، ويحفظ ما يؤمرون بحفظه ، وكثيراً
ما يسبقهم لقوة حافظته ، فينتقل به الفقيه إلى جديد من التلاوة
والحفظ ، ولا يقف به حيث يقفون ، ويشتد إعجابه بالطفل ،
فيحدث والده أكثر من مرة عن ذكاء طفله ، وسبقه في التلاوة ،
وعن ظاهرة أخرى تميز بها ، ودلت عليها إجاباته الواضحة
المقنعة ، وهي « الفصاحة » ، كما كان يسميها فقيه الكتاب
و « عريفه » به .



الطفل في الكتاب يقرأ القرآن

ولم يقنع الأب بما يتلقى ابنه في الكتاب ، فعهد إلى صراف القرية أن يعلمه الحساب ، فعلمه غير قليل من أساسياته وقواعده ..

* * *

وقد استفاد الطفل من دراسته في الكتاب أكثر من غيره ، لذكائه وقوة ذاكرته وسلامة منطقته وتعبيره ، فازدهى به أبوه ، وأفاض في الحديث عن مواهبه لأصحابه وجلسائه ، وعزم على أن يُعنى ، بهذا الطفل ويمهد له السبيل لكي يتابع دراسته .
ولكن الصغير اصطدم صدمة قوية .. لقد مات أبوه وهو في الثامنة ، وكان هذا الأب يعطيه دفعة قوية ، تزيد من حماسه ، وثقته بنفسه ، وأمله في حياة أفضل .
ظن الطفل أن أخاه محمدا سيهمله ، مع ما كان يظهره هذا الأخ من حسن الرعاية له ، وشدة الاهتمام به .. ولهذا قضى الفترة الأخيرة في الكتاب ، ونفسه تتردد بين الثقة في أخيه والخوف من إهماله له .

وأخيرا اطمأن قلب الطفل ، فقد وفى له أخوه ، وزاد من العناية به في الكتاب وعند صراف القرية ، حتى تهيأ للدخول

الأزهر ، فبعث به إليه .. وفي الأزهر قضى الصبى أربع سنوات ، حصل فيها قدرًا صالحًا من علوم اللغة والدين ، وازدادت بها قدراته نمواً ، وثقافته اتساعاً ، ولسانه قدوةً على الحديث والحوار والإقناع والتأثير .

وبينا هو في دراسته إذ شاع بين رجال الإدارة في القرى أن « سعيداً » ، الذى جاء بعد عباس الأول سنة ١٨٥٥ ، عازمٌ على النهوض بالجيش ، وعلى قبول أبناء المشايخ والأعيان به ، حتى يرتفع مستواه ، فيزداد تقدير الناس له .

سمع الأزهرى « أحمد عرابى » بهذا النبأ ، فراح يتدبر أمره ، وكان طموحاً منذ صغره ، فإذا سأل سائل ما يريد أن يكون فى مستقبله قال : أريد أن أكون مثل مدير المديرية .. فكر ، وفكر ، فهداه تفكيره أن طريق الأزهر طويل ، وأنه لا يحقق طموحه ، فعزم على أن يقطع دراسته به ، وتقدم إلى الجيش ، فقبله ، وانضم إلى من يعملون فيه .

الفتى في صفوف الجيش

وقفت دراسة الفتى عندما حصله في الأزهر ، ولكن ثقافته لم تتوقف ، فقد كان يقرأ ، ويمتاز في قراءته بالسرعة والفهم ، وقوة الذاكرة والحافظة .. وأهله ما منحه الله من هذه المواهب ، وما حرص عليه من القراءة ، وما كان له في مدرسة الحياة من تجارب وخبرات . أهله ذلك كله أن يبلغ في مستقبل حياته مستوى رفيعاً من القدرة على الحديث ، والحوار ، والخطابة المثيرة المقنعة ، حتى قيل إنه كان أخطب خطباء ثورته . دخل الفتى الجيش وهو يستقبل مرحلة الشباب ، وتولّى فيه عملاً كتابياً ، أحسن أدائه ، ولكنه لم يقنع به ، وتنبه إليه رئيسه في الفرقة الرابعة ، من « الآلاى الأول للمشاة » فألحقه بسلك الجند في مرتبة « جاويش » . وسرّ الشاب بهذه الانتقالة ، وأقبل يحمل نفسه على العمل الجاد الدائب في دراسة التعاليم والنظم العسكرية ، والمراعاة على مهام الرتب التي يتطلع أن يرقى إليها ، وسجل في ذلك نجاحاً باهراً ، دلّ على

نبوغه وامتيازه ، وقفز به إلى رتبة « قائمقام » في أقل من أربع سنوات. وكانت قفزة ملأت نفسه ثقة واعتزازا ، وملأت نفوس الشركس في الجيش غيظا ، لأن فلاحا شابا طفر في سلمه بسرعة مذهلة ، حتى اقترب من وظائفه العليا المقصورة عليهم ، وهم — فيما يرون — سادة الفلاحين العبيد ، وضاعف من غيظهم أنه معتز بنفسه ، يحرص على كرامته ، ولا يعرف الذلة والهوان .

وآثارت هذه النظرة سخط « القائمقام » المصرى الشاب ، فكره منهم أنهم غرباء ، ينعمون بخير مصر ، ويحرمون منه أبناءها ، ثم يحتقرونهم ، ويبالغون في الاستهزاء بهم ، فإذا شتموا أحدا قالوا : فلاح ! فلاح ! .. واشتدت هذه الكراهية حين رأى الشركس يفرقون في المعاملة بين بنى جنسهم وبين المصريين ، ورأى من هؤلاء المصريين من يقابل غطرستهم بالصمت والاستسلام .. وأخذ يسأل نفسه : متى تتغير هذه الحال ؟ وكيف تتغير ؟!

لم يفقد عرابى الأمل . لقد عرف أن « سعيدا » حاكم مصر يعطف على المصريين ، وقد سمعه يقول فيها :

« وحيث أنى أعتبر نفسى مصرى فوجب على أن أرى أبناء هذا

الشعب ، وأهذبته تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمةً صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطّدتُ نفسي على إبراز هذه الفكرة من الفكرة إلى العمل « كانت هذه الخطبة فرحةً شديدةً للمصريين ، وصاعقةً قوية على غيرهم من الدخلاء ، وخرج عرابي بعدها ، وقد وضحت في ذهنه فكرة « مصر للمصريين » ، ورأى فيها السبيل الوحيد لإنصاف أبنائها من الجنود والفلاحين وغيرهم .

أثر هذا الموقف من « سعيد » في نفس عرابي ، فتقرب منه ، وأعجب سعيد به ، فاختره « ياوراله » في زيارته للمدينة المنورة سنة ١٨٦٢ ، وكان اختياراً أسعد المصريين ، وكسبت الشراكسة .

وفي أثناء الرحلة أمسك « سعيد » كتاباً ، وأخذ يقرؤه باهتمام ، ووجهه ينبسط حيناً ، وينقبض حيناً ، ثم ألقى بالكتاب من يده ، وهو غضبان ، وراح يحدث نفسه ، ويقول : ما هذا ؟ كيف استطاع نابليون أن يهزم مصر بثلاثين ألف جندي ؟ ثلاثين ألفاً ؟ يا للسخرية ! ونظر إلى عرابي ، وكأنه يريد منه أن يقرأ الكتاب ، ويفسر له هذا اللغز الذي حيره .



عز ابن في الثانية والعشرين يشرح رأيه للخديو سعيد .

التقط عرابى الكتاب ، فوجده مترجمًا إلى اللغة العربية ،
ووجد فيه حديثًا طويلًا عن فتح نابليون لمصر ، فأكبَّ على
قراءته ، ولم ينم حتى أتمه ، وفى الصباح دخل على « سعيد » يخبره
بأن نابليون فتح مصر بجنده المدربين المنظمين ، وكأنما أراد عرابى
أن يدفعه إلى تنظيم الجيش المصرى وتدريبه .

(٤)

بوادر الثورة العراقية

انتفع عرابي كثيرا برحلته مع « سعيد » إلى المدينة المنورة ،
فقد وضعته في جوار « سعيد » ، وقربته من أهم مصدرٍ للسياسة
والحكم في البلاد ، وأتاحت له فرصة ذهبية ، يراجع فيها نفسه ،
ويحدد خطته في مواجهة المظالم الفظيعة التي يقاسيها أبناء مصر في
الجيش وفي الحقول وفي كل موقع يعملون فيه .. يقول أحد
الإنجليز الذين كتبوا عن عرابي وثورته :

« كون عرابي آراءه السياسية الأولى في أثناء هذه الصلة القرية
من « سعيد » ، وهذه الآراء هي المساواة بين طبقات الأمة ،
وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب في القومية
المصرية .. والدفاع عن حقوق الفلاح هو الذي جعل لعرابي ميزة
بين المصلحين في ذلك العصر. عاد عرابي مع « سعيد » من هذه
الرحلة ، وكان يعلق شيئاً من آماله بهذا الحاكم ، ولكن حياته لم
تطُل ، وجاء بعده إسماعيل سنة ١٨٦٣ .

عرف الحاكم الجديد صلةً عرابي بسلفه ، فلم يطمئن إليه ، ولم يقرُّ به منه ، وبادله عرابي الشعور نفسه ، فلم يحاول التودُّد إليه ، ولم ينخدع به ، وزادت الأحداثُ شيئاً فشيئاً من إحساسه بخيبة أمله وأملٍ مصرَ في إسماعيل ؛ فقد كان يميلُ إلى الشركس ، ويمنحهم من عطفه ما ييخل به على المصريين ، وكان خلقاً غريباً .. يعلن أنه يعملُ لخير مصرَ وهو يقتلها بالديون ، ويزعم أنه يسعى لاستقلالها وهو يسوقها نحو العبودية ، ويفخر بأنه متحضِّرٌ ينقلُ لها مدنيةَ الغرب ، وهو لا ينقلُ من هذه المدنية إلا القشور ، ويتظاهرُ بحبه لحريتها وهو يستبدُّ بها ، ويُذلُّ أبناءها ، ويحكمهم بيدٍ من حديد .

أحب أن يجعلها ، كما يقول ، قطعةً من أوربة ، فأسرف في بناءِ القصور ، وتزينها بروائع الزخارف والنافورات والتماثيل ، وملاها بالجوارى والوصيفات والمغنيات والراقصات ، ورأت بطانةَ السوء تهمةً بهن ، فجلبتهن له من أنحاء الدنيا ، وزحمت بهن قصوره ، فكان ما أنفقه من الأموال عليها وعلى حفلاته بها أكثرَ مما أنفقه على نواحي الإصلاح في البلاد .. وصحبا من حياته الماجنة المدمرة مع بطانته ، فرأى المالُ قد قلَّ في يده ، فمالَ على

المصريين يُرهقهم بالضرائب ، ولكن لم يكفه ما جمع من ضرائب ، فأخذ يجمع ما يستطيع بالسلب والنهب والتعذيب والسياسة ، ثم تناقص هذا المصدر ، فاتجه إلى بيوت المال الأجنبية ، يستدين منها بأفحش الفوائد .. ونظرت إنجلترا فوجدت فرنسا في مقدمة الدائنين فأسرعت تزاحمها ، وانتهزت غفلة إسماعيل ، واشترت منه أسهم مصر في قناة السويس ؛ وبذلك قفزت ديونها قفزة عالية ، وتهيأت لها فرصة التدخل في شئون مصر .

كان « عرابي » يراقب الأحداث وهو في أشد الأسى ؛ وفي غاية اليقظة ، وكان يفكر فيها وفي أمر الجيش الذي يتحكم فيه الشركس ، ويصرح برأيه في هذا الوضع الفاسد . غضب عليه رئيسه الشركسي ، وتحداه ، حتى فصل ، وظل بعيداً عن الجيش ثلاث سنوات . ثم شكّا فعفى عنه ، ولكنه حوّل إلى الأعمال المدنية .. لم يضعف عرابي أو يكف عن كشف العسف الذي لحق به ، فأعيد إلى العمل العسكري ، ولكن كان عليه أن يذهب مع الفرقة المسافرة إلى الحرب في الحبشة ، وكان هدف رؤسائه الشركس إبعاده عن البلاد ؛ لعله يكف عن كشف عيوبهم ، أو يموت فيستريحوا منه .

لم يمت « عرابى » بل عاد من الحبشة ، ليرى الأمور في مصر قد انتقلت من سيئ إلى أسوأ ؛ فإنجلترا وفرنسا تشهران بإسماعيل ، وضعف مركزه الحالى ، وتعريضه أموال الأجانب للخطر ، وتضغطان عليه ضغطاً ثقيلاً ، حتى يقبل إنشاء هيئة لهم في مصر ، باسم « صندوق الدين » ؛ ليحافظ على ديونهم ، ولا يعرضها للضياع ، وكان هذا فاتحة مشئومة للتدخل في شئون مصر ، وتعين وزيرين أجنيين في الوزارة المصرية ، أحدهما إنجليزى للمالية ، والآخر فرنسى للأشغال .

وأحس عرابى الخطر ، ورأى أن إسماعيل الطاغية قد حنى رأسه للأجانب ، وأصبح هدفاً لهم .. شجعوه على أن يستدين حتى وقع فى المصيدة ، ثم راحت إنجلترا تخوفهم منه ، وتظاهر بأنها تدافع عنهم ، حتى يقفوا من ورائها فى لعبها الماكر به .. ونجحت فى حملتها عليه ، وأرغمته على أن يأتى بوزارة « نوبار باشا » ، وفيها الوزيران الأجنبيان ، وأدرك الخديو المسكين الخطر ، فقال فى حزن أليم :

« لقد احتفروا لى قبرى » .

راح عرابى يُنظّم حركة المقاومة السرية فى الجيش ، ويؤتحد

صفوف المصريين به ، وكانت بذور هذه الحركة قد نبتت في حرب الحبشة ، وفي جو القهر والإذلال والتضحيات التي عاناها الجنود المصريون ، وهو في مقدمتهم .. وبدأ العمل .. النفوس تغلى ، ونوبار يعمل للأجانب ، ويحاربُ المصريين ، وإسماعيلُ يكرهُ وزارة « نوبار » التي جاءت بالرغم من أنفه ، والجو مهياً للوقوف في طريق الخطر الذي تتعرض له البلاد . وبدأت أول خطوة ، فشهد عام ١٨٧٨ حركةً للجيش لم يعرفها من قبل .. انطلق عددٌ من الضباط بقيادة لطيف سليم إلى وزارة المالية ، وطالبوا بمرتباتهم المتأخرة .. فارتاع « نوبار » ، وأسرعَ للقائهم ، ومعه الوزيرُ الإنجليزى ، فهجم عليهما الضباطُ ، وأمسكوا « نوبار » ، وانهالوا عليه يضربونه .. ورأى الخديو إسماعيلُ ذلك ، فأمر قائدَ حرسه بالقبض عليهم ، حتى يُبعدَ الشبهة عن نفسه ، ولكن قائدَ الحرس كان من التنظيم المصرى ، فأشار بإطلاق النار في الهواء .. وأتتهم « عرابى » ، ومعه ضابطان بتدبير المؤامرة ، وقدّما إلى « البارودى » مأمور ضبطية القاهرة ، وكان ثائراً ، فساعدهم ، وانضم إليهم سرّاً ، ووصلَ بينهم وبين الوطنيين خارجَ الجيش ، فكانت هذه الصلةُ أساسَ الثورة العرابية ، وقاعدةُ كفاحها الوطنى المخلص .

اهتزَّ « نوبار » هزةً عنيفةً ، وسقطت وزارته متأثرة بحركة الجيش وأراد الأجانب بقاءها فأبى إسماعيل ، ورشح إسماعيل نفسه لرياستها فأبى الأجانب ، وتملقهم ابنه « توفيق » ؛ ليرضوا به رئيساً لها ، فقبلوا على أن يكون للوزيرين الإنجليزى والفرنسى حقُّ « الفيتو » فى الشئون المالية ، فلا يجرى فيها شيء إلا بأمرٍ منهما . نظر عرابى ، فرأى قبضة الأجانب قد شلت الوزارة ، فزاد من اجتماعاته بالوطنيين خارج الجيش ، وعن أحد هذه الاجتماعات يقول .:

« قبل أن نفترق اقترحت أن نتحد ونخلع إسماعيل ، ولو فعلنا ذلك لكان خير حلٍّ للقضية ؛ لأنه كان يسرُّ القناصل .. ثم كان يوفرُّ على البلاد ما حدث بعد ذلك من تعقُّد الأمور . كما كان يوفرُّ عليها تلك الملايين الخمسة عشر التى حملها معه حين نُخلع ، ولكن لم يكن من يقود هذه الحركة .. وكنا نستطيع أن نقيم حكومةً جمهورية » .

وهكذا عرف عرابى الطريق ، ولمح الفرصة ، ولكن زعامته لم تكن برزت ، حتى تنقاد الأمة له ، .. وقنع فترةً بالعمل فى الخفاء ، ينظم قوة المصريين فى الجيش ، ويساند القوة الوطنية

خارجة ، وشيئاً فشيئاً التقت القوتان ، فاشتد ساعد الأمة ،
وظهر مجلس شورى النواب بعد أن كان معطلا ، وعلا صوته بعد أن
كان خافتا ، وطالب بأن تكون الوزارة مسئولة أمامه ، وأن يكون
له وحده حق الإشراف على أموال البلاد .

وإذا ذاك اهتز توفيق ، واستقالت وزارته ، وجاءت وزارة
شريف ، فأيدت مطالب الأمة وأصبح الحكم بها دستوريا ، وكان
ذلك نصرا غاليا لها ، من وراءه حركة الجيش والشعب .

(٥)

عزابی وأحداث قصر النيل

اصطدم الأجانب صدمةً عنيفة بعد أن عصفت الحركة القومية بوزارة « نوبار » حليفهم ، وجاءت بوزارة شريف التي ناصرت الحركة ، وأقرت الحكم الدستوري ، وعملت على شل سلطان الوزيرين الأجبيين .

وأحس الإنجليز الخطر ، وشعروا أن مصر في طريقها إلى الخروج من أيديهم ، فسعوا عند الخليفة لعزل إسماعيل ، وكان قد عجز عن إرسال الأموال له ، فخلعه ، وتولى ابنه توفيق عرش مصر ، ووقفت الدنيا تضحك في سخرية من الابن الذي سعى مع الأجانب في عزل أبيه ، ليجلس على عرشه سنة ١٩٧٩ ، وكان الثمن أن يقف معهم ، وينفذ مطالبهم ... وهكذا تغير الجالس على العرش ، فاستقال « شريف » ، ثم عاد فألف وزارته الثانية ، ورحب به توفيق ترحيب الماكر حتى استقر في منصبه ، ثم أخذ يضرب ضرباته الغادرة .

كان عرابى يفكر ، ويمعن فى التفكير .. لقد قهر بالتقائه مع الوطنيين عوامل اليأس والخوف التى كانت تسيطر عليهم ، فتحركوا ، وتجرعوا ، ووقف قادتُهم فى مجلس النواب مُصرّين على مقاومة الأجانب ، وإقامة الحكم الدستورى . وقبل ذلك قهر اليأس والخوف فى نفوس المصريين فى الجيش ، فأحسوا بوجودهم ، وهبُوا فى وجه « نوبار » حتى استقال .. وأصبح عليه أن يقهر ما قد يمر بخاطره من عوامل التردد فى الكشف عن نفسه ، حتى يواجه نوايا الإنجليز ، وضَعَفَ الخديو الذى أصيبت مصرُ به .. وراح يتحين الفرصة للعمل والنضال ، وجاءته الفرصة ... رجع « توفيق » عن عودِهِ المعسولة للشعب ، وكشّر له عن أنيابه ، فألغى الحكم الدستورى الذى ظفّر به ، وأعادَ للأجانب ما طالبوا به من الإشراف على النظام المالى فى مصر ، وأخرج وزارة شريف الثانية ، فاستقال ، وجاء بوزارة « رياض » ، لتضرب من يقفون فى وجهه . وكان عثمان رفقى وزير الحربية فى وزارة « رياض » شركسًا متغطرًا متعصبا ، فجعل أكثر الترقيات فى الجيش لبنى جنسيه من الشركس .. وراح يُعِدُّ القوانين التى تحرّمُ المصريين من الصعود إلى الوظائف العالية ،

وعزل بعضهم ، وسمَح بتسخير الجند في العمل بأرض الخديو ..
عارض عرابي عثمان رفقي ، فلم يرض عن تسخير الجند في
أرض الخديو ، والتقى في بيته بمن عُزلوا من مناصبهم ومعهم بعض
من زملائهم ، فشكوا إليه مما حلَّ بهم ، وناشدوه أن يتولَّى الدفاع
عنهم ، وأقسموا له قسمَ الوفاء والإخلاص على أن يفتدوه ،
ويفتدوا الوطن العزيز بأرواحهم ..

استجاب عرابي ، وكتب « عريضة » إلى رئيس الوزارة
رياض ، تطالب بإقالة عثمان رفقي ، وتعيين غيره من أبناء مصر ،
وإجراء تحقيق معه فيما أُصدر من ترقية وعزل ، ووقع
العريضة ، ووقعها معه على فهمي ، وعبد العالي حلمي .
قرأ رياض العريضة ، فذهل ؛ لأنه لم ير من قبل مثل هذه الجرأة
في مصر ، وفي ظل هذه الأسرة الحاكمة ، ونظر إلى الضباط
الثلاثة ، وقال :

إن « عريضتكم مهلكة ! ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير
الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانها ؟ فأجاب عرابي في جرأة
ودهشة : هل ولدت مصرُ ثمانية أبناء ، ثم عَقمت ، وكان يعنيه ،
ويعني وزراءه السبعة .

وصمت رياض ، وفي صدره غيظٌ ، وعلى وجهه سحابةُ
نفاق ، وأذن لهم في الخروج ، وقد استصدر أمراً من الخديو
بمحاكمتهم ، واتفق مع عثمان رفقى أن يسرعَ بالقبض عليهم ،
تمهيداً لمحاكمتهم وإعدامهم .

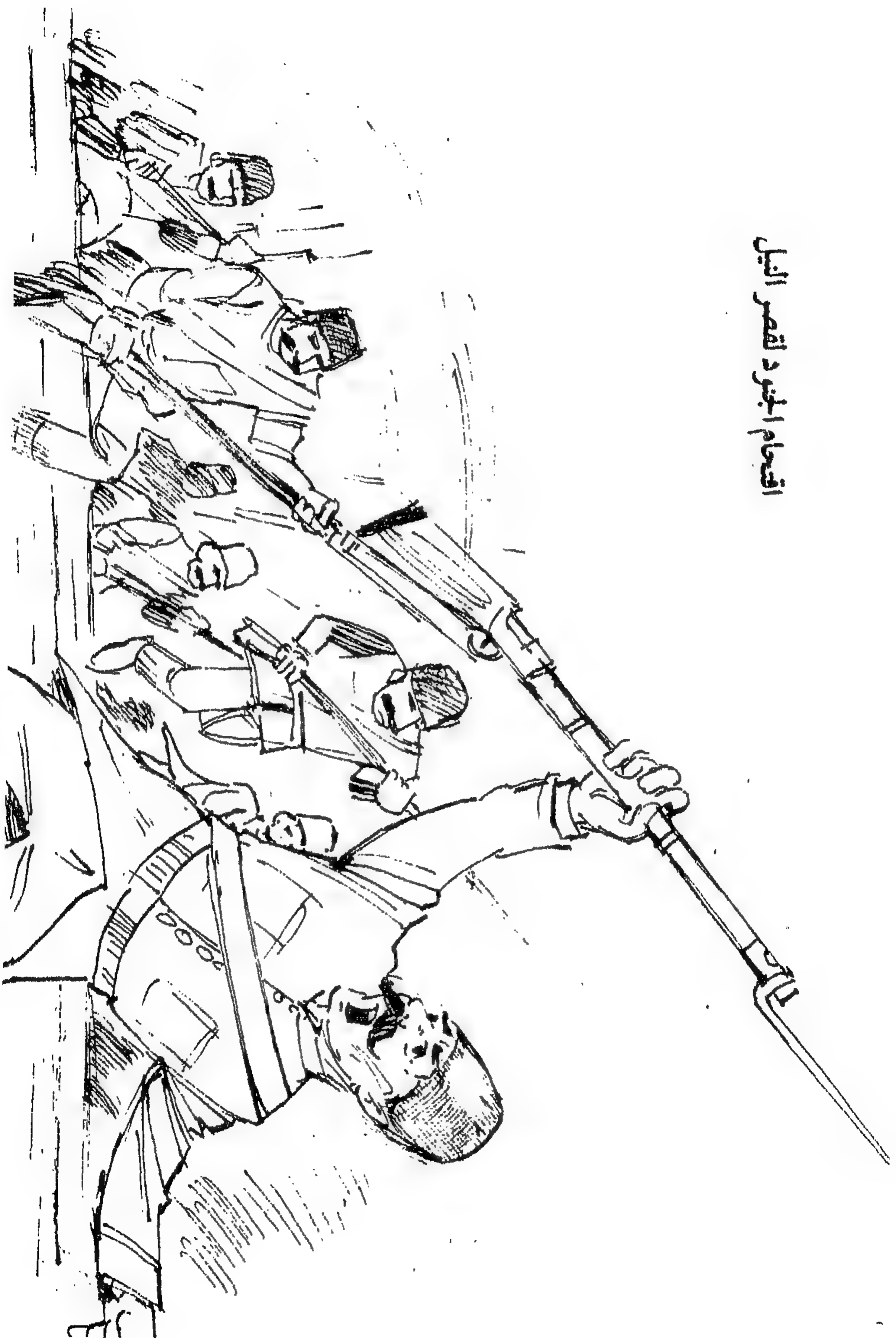
رجع الضباط الثلاثة والشكُّ في « رياض » و « رفقى » يملأ
عقولهم .. وفجأة تلقوا دعوة من عثمان رفقى ، يدعوهم فيها إلى
ديوان وزارة الحرية بقصر النيل ، للمشاركة في الاستعداد
لحفلات زفاف إحدى الأميرات ، فأحسُّوا أن وراء هذه الدعوة
خُدعةً لاصطيادهم ، وطلبوا إلى فريقهم أن تسرعَ إليهم إذا تأخرت
عودتهم عن ساعتين .

وصح ما توقعوه .. ذهبوا إلى الوزارة في أول فبراير سنة
١٨٨١ ، فلم يَرَوْا استعداداً لأى احتفال ، بل وجدوا أنفسهم
بين جنود الشركس الذين اندفعوا للقبض عليهم ، وانتزاع
أسلحتهم ، وزجَّهم في السجن مع سيل من الشتائم القذرة .. وفي
الحال انعقدَ مجلسٌ عسكريٌّ لمحاكمتهم .. وضجَّك عثمان رفقى
ضحكةً عاليةً ، فقد نجحت الحيلةُ ، وأصبحت نهايةُ عرابي
وصاحبيه بين لحظةٍ وأخرى .. وهنا كانت المفاجأة ، فقد التفَّ

بدار الوزارة فريق حرس « عابدين » ، واقتحمها ، وحطّم
الأبواب والنوافذ ، وبحث عن الضباط الثلاثة حتى وجدهم ،
فك قيودهم ، وأطلقهم من سجنهم ، ثم سارع للقبض على من
دبروا لهم المؤامرة ، ولكنه وجدهم قد لاذوا بالفرار ، وفي
مقدمتهم عثمان رفقى .. فذهب الفريق إلى قصر « عابدين » ،
وهناك أدركه فريق « طرة » وتجمع الفريقان ، فكان منظراً
رهيباً ، زاغ له بصير توفيق ، واشتد فزعُه واضطرابُه .

تماسك الخديو بالرغم من أن حرسه تحدّاه ، وهبّ لإنقاذ
عراي وصاحبيه ، وبالرغم من اهتزاز مكانته في عيون الجيش
والشعب ، وتظاهر بالشجاعة وأراد أن ينتقم من المتمردين في
رأيه .. ولكن رجاله خوّفوه من ثورة الجيش عليه ، فتراجع على
كُرهِ منه ، ورأى أن ينحني أمام العاصفة حتى تمر ، فاستجاب
لمطالبهم ، وزاد ، فأقام حفلاً لرجال جيشه ، أعلن فيه عفوّه عمن
أخطئوا من الضباط ، وصرّح بأنه لا يُضمِر لأحدهم أيّ شر ،
وكان لهذه الحركة أثرها القوي في حياة البلاد ، فقد فجرت
الحماسة في نفوس الجنود والشعب ، ورفعت منزلة عراي في
عيون المصريين ، واستقبل الشعب بعدها فترةً شعَرَ فيها بنفيض من

افتحام الجنود لقصر النيل



البهجة والعزة والكرامة ؛ فأبناء مصر في الجيش وخارج الجيش
يتجمعون ويتحدّون الخديو نصير الأجانب ، والوفود تتهافت على
عرايى ، تهتئ بنجاته ونجاة صاحبيه ، وتهتف بحياته وحياة جنوده
الأحرار ، وكلّهم يرون أن أملا جديدا للأمة بدأ بظهوره ، ويرى
هو أن فكرة « مصر للمصريين يجب أن تتحقق ، وأن آمال الأمة
أصبحت أمانة في يده ، وأن عليه أن يقودها ليحقق هذه الآمال ،
ولو ضحى في سبيل ذلك بكل ما يملك ، حتى روجه وحياته .

(٦)

عرايى وقوات الجيش أمام قصر عابدين

كان عرايى جديراً بزعامه مصر ، وبأن يقودَ شعبها إلى حياة أفضل بعد عصورٍ طويلةٍ من النسيان ، وقد أهّله صفاته لهذه الزعامه .. كان يملأ العين بروعة تكوينه وبسطة جسمه ، ويملأ النفس بلباقته الجميل ، وابتسامته الجذابة ، وخطابته التى تشد السامعين ، وحواره الهادئ الذى يجمع بين التفكير السليم ، والفصاحة ، والقدرة على الإقناع ، وكان مع ذلك كله فلاحاً صريحاً متواضعاً ، لم تغير الأيام من صفاته واستقامة طبيعه .

ومما يشبه المعجزات أن يخرج من أعماق الريف فلاح مثله ، يستطيع أن يواجه ما واجهه ، وينجح نجاحه .. قال عنه أحد الإنجليز . « أحبُّ أن أذكر أنه فى تاريخ مصر كله لم يبرز فى مدى ثلاثة قرون على الأقل فلاح بسيط .. إلى أن يصبح ذا مكانة

سياسية لها خطرُها ، أو إلى أن يصبحَ داعيةَ إصلاح ، أو إلى أن يهمسَ بكلمةٍ تدعو إلى الثورة».

* * *

ارتفع نجمُ عرابي في سماءِ مصر ، ولمع حتى غطى نورُه أظهر النجوم فيها ، وظن الناس أنه لَقِّنَ الخديو في قصر النيل درسًا لن ينساه ، ولكن هذا الخديو لم يتخلَّ عن طبعه ، فراح يدبرُ مع « رياض » رئيس وزارته أحسنَ الدسائس لاغتيال عرابي وأصحابه ، ويفكرُ في تفريق الجيش ونقل بعض فرقهِ إلى السودان ، ويحاربُ الدستور ، وعاد كالدمية المعلقة خيوطُها بأيدي الأجانب ، يحركونها كما يشاءون.. ولو أنه انضم إلى الحركة الوطنية لأنقذَ نفسه وعرشه وبلاده .

استعد عرابي لمواجهة بصورة أقوى وأروع ، فكتب إلى وزير الحرية ، يطلب إليه أن يبلغ الخديو أن فرَّق الجيش ستحضر إلى ساحة قصر عابدين بعد ظهر يوم الجمعة التاسع من سبتمبر سنة ١٩٨١ ؛ لتقدِّم إليه مطالب الأمة .

ارتاع الخديو وحاول ردَّ عرابي عن عزمه ، فلم يُصغِ إليه ، فأمر فرقة حرسه أن تتحصَّن بالقصر ، وانطلق إلى الفرق الأخرى

يحاول منعها من المسير ، ولكنها أبت ، ووضعت إحداها الأسنة
في البنادق لمواجهة ، فعاد إلى القصر ، فوجد الجيش قد تجمع
أمامه ، وانسحب حرس القصر من مواقعهم ، وانضموا إليه .
عاد الخديو وأخذ يميل على المراقب المالى الإنجليزى ، ويسأله :
ماذا أصنع ؟

فيهمس فى أذنه : اضرب هذا المتمرّد بالنار ..
فيقول : كيف ، وأنا بين أربع نيران ؟! ويعنى بذلك فرق
الجيش الأربع . ونظر فى خوف ، فوجد الجيش المستعدّ ،
والمدافع المسدّدة إلى القصر ، والكتل البشرية التى تجمعت فى
الساحة فاضطرب وعاد يسأل من حوله من الإنجليز ورجال القصر ،
فشجعوه حتى تماسك ، وبرز للجيش ، فتقدم عرابى نحوه ، وهو
على ظهر جواده ، وسيفه فى يده ، فأشار إلى عرابى ، فنزل ،
وأغمد سيفه ، وحيّا التحية العسكرية .

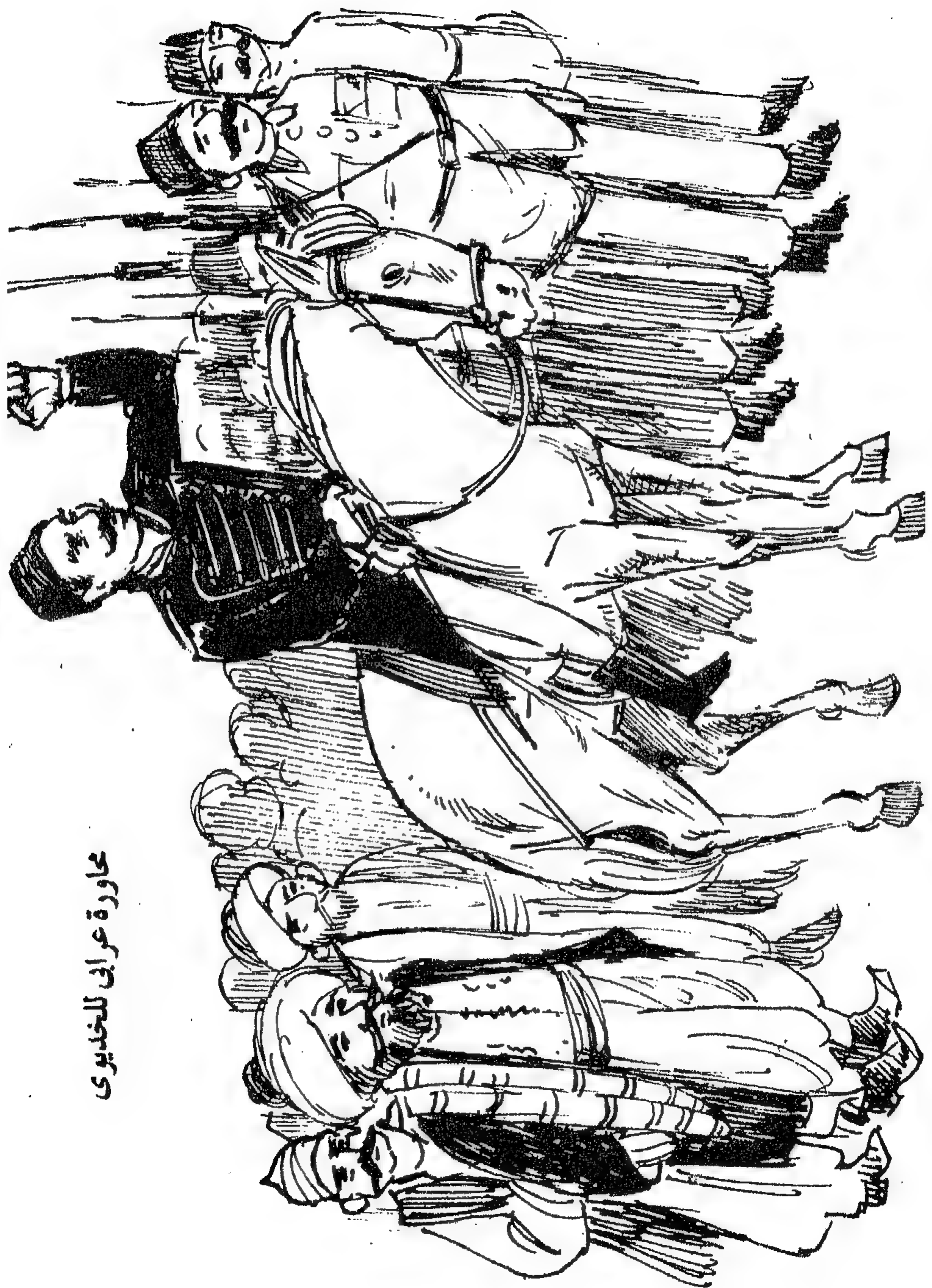
سأله الخديو : ما أسباب حضورك بالجيش هنا ؟
أجاب : جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ،
وكلها طلبات عادلة .

— وما هذه الطلبات ؟

— : إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على
النَّسَبِ الأوربي ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المقرر له ،
والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها .
— : كل هذه الطلبات لا حقَّ لكم فيها .. أنا ورثت هذه
البلاذ عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .
— : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا أو عقارا ، ولن
نُسْتَعْبَدَ بعد اليوم .

ارتعد الخديو ، وهروا نحو القصر وهو يلهث ، وبقي أحد
الإنجليز مع عرابي يحاول أن يخدعه ، ويخمد حماسه ، ثم عاد إلى
الخديو ليشارك في إلهاب نفسه على عرابي وصحبه ، ولكن الخديو
كان أجبن من أن يواجه هذا الزعيم الفلاح ، ومن ورائه الجيش
والأمة .

خضع توفيق . فأقال وزارة رياض ، ووافق على زيادة عدد الجيش ،
وعلى الحكم الدستوري ، والقوانين العسكرية ، وعهد إلى « شريف »
بتأليف الوزارة في الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٨١ .
وعاد الجيش إلى ثكناته ، وقد حقق لمصر آمالها ، وكانت
ثورته بيضاء ، لم تُسْفَح فيها نقطة دم ، ولم تشوّه بشيء يكدر



محاورة عراقى للخديوى

صفاءها ، ومزت بمصر بعد هذا الحادث فترة لم ترَ مثلها منذ عهود
سحيقة .. ملأت الفرحة القلوب ، وانزاح عنها الخوف ،
وظهرت القومية المصرية بالتحام الجيش والشعب ، وأخذ الناس
يتبادلون التهئة ، ويشتر بعضهم بعضا بغد سعيد باسم .. وذاع
اسم عرابي في أنحاء البلاد ، وكان الناس يسمونه « البطل » ،
و « الوحيد » ، و « المنقذ » ، ويروونه رجلاً مصر الذي بعثته
العناية الإلهية لتحقيق أملها في حياة حرة كريمة .

* * *

في هذا الجو اندفعت وزارة « شريف » الثالثة إلى العمل ،
 واجتمع مجلس النواب كما طلب عرابي ، وبدأ في إعداد لائحته ،
وأحسن الإنجليز أن الحكم الدستوري يهددهم ، وينسف حلمهم
في أن يتخذوا من الديون والإشراف المالي ثغرة ، ينفذون منها إلى
التدخل الكامل في شؤون البلاد .

وعندئذ أسرع المراقبان : الإنجليزي والفرنسي ، فقدما
مذكرة إلى شريف ، يطالبان فيها بعدم إشراف مجلس النواب على
« الميزانية » ، أو التعرض لشيء يتصل بها . وتردد الخديو ، ثم عاد
إلى طبيعته الخبيث ، فأنحاز إلى الأجانب .. وانتظر الشعب موقف

« شريف » ، ولكنه جاء مخيباً لآمال المجلس ؛ فقد مال « شريف » إلى مجاملة الخديو ، ومهادنة الأجانب . ورد المجلس الضربة بأقصى منها ؛ فقد اجتمع ووحد صفوفه ، ووقف في وجه الخديو وقفة صلبة عنيدة ، أصر فيها على إقالة وزارة « شريف » ، ولم يتزحزح أو يتراجع ، فاهتز « توفيق » ، وخضع لمطلب المجلس ، وانزاحت وزارة « شريف » ، وجاءت بعدها وزارة « البارودي » أحد أبطال الثورة العراقية .

(٧)

صراع القوى المعادية للقومية المصرية

أسندت الوزارة إلى محمود سامي البارودي في الرابع من فبراير سنة ١٩٨٢ ، وكانت تسمى « الوزارة الوطنية » ، كما كانت تسمى وزارة الثورة ؛ لأنها جمعت ثلاثة من أعضائها ، وهم البارودي ، وعراي وزير الحربية والبحرية ، ومحمود فهمي وزير الأشغال .

وقد حققت هذه الوزارة أمل الشعب فيها ، وأمل المجلس فيما طالب به من نظام دستوري ، يجعل له حق الإشراف على الوزارة ، وحق الرقابة على الميزانية ، ومحاسبة الأجانب . واجتمع هذا المجلس في الثامن من فبراير سنة ١٨٨٢ ، واستقبل البارودي استقبالاً مدوياً ، عاصفا بهتافات النصر والعزة .

وقع الخديو في قصره ، وكان كما يقول المؤرخون : « طائر القلب ، حائر اللب مما يجري حوله ، فهو لا يحب الحركة الوطنية ، ولا يستطيع أن يصلح عليها طبعه ، وهو في شك من

نيابت الخلافة في تركيا نحو عرشه ، وهو فِرْعٌ من دسائس بعض
الأمراء ضده عند هذه الخلافة ، بل هو فِرْعٌ أيضا من دسائس أبيه
ومساعيه في مصر وتركيا .

ولكن الأجانب أخرجوه من عزلته ، وشجعوه على مقاومة
عرايى الذى اجتذب الناس فأنسأهم صاحب العرش ، وملاً
قلوبهم سخطاً وحقدا عليه ، وخوفه هؤلاء الأجانب من أنه
يعمل لكى يزيحه عن عرشه ، ويتربع فوقه .. وصدقهم
« توفيق » الخائف المخادع ، ولو أنه عرف طبيعة عرايى لأدرك أنه
من أبعد الناس عن التفكير فى انتهاز الفرص وتوجيهها لمصلحه
الذاتية .. عرض عليه البارودى هذا العرش ، وعاهده على التأييد
والمناصرة ، فأجابه فى كلمات قاطعة : « مَهْ يا محمود باشا ، فأنا
لا أريد إلا تحرير بلادى ، وليس لى مطمع أصلا فى الاستئثار
بالمنافع الشخصية » .

ومع نُبل عرايى وترفعه قضى الخديو فترة ، وهو كدوارة
الريح ، يدور نحو عرايى وآمال مصر مرة ، ونحو الأجانب أكثر
من مرة ، واستغل هؤلاء ضعفه وتردده ، واندفعوا كالشياطين ،
يؤززون ولا يظهرون ، وكانت الفتنة الجديدة تتركز فى اغتيال :

عرايى وزعماء حركته ، ولم يكن أصلح لهذه الفتنة من الشر كس أعداء عرايى ، وأحرص الناس على قتله ، كما لم يكن أحداً أكثر منهم أمناً إذا قاموا بها ، لأنهم رجال الخديو ، وحلفاء الأجانب فى نصرته والدفاع عنه . ودُبِّرَت المؤامرة ، وخدَّد لكل شركسى عمله فيها ، وكادت تتم لولا أن ضمير أحدهم صحا ، وأسرع إلى عرايى يخبره بها . وفى الحال ألقى القبض على أصحابها ، وحوكموا ، وثبتت الجريمة ، فصدر أمر المحكمة العسكرية بتجريدهم من رتبهم ونفيمهم إلى السودان ، وبينهم عثمان رفقى الشركسى المتغطرس .. وُرْفِعَ الحكم إلى « توفيق » لاعتماده .. وكان المفروض ألا يتردد فى ذلك ، ولكنه وقف حائرا .. يُلحُّ عليه الإنجليز أن يمتنع رفقا برجاله فيميل إلى الامتناع ، ويخشى غضبة المصريين ، ويعرف فى أعماقه أن الحق معهم ، فينزع إلى الموافقة .. وهنا وقف بين طريقين : طريق الوفاء لشعبه ، وطريق الغدر به ، ولم يكن الغدر جديداً على أسرته التى بدأ كبيرها بمذبحة الممالك . وأخيرا انحاز إلى أعداء وطنه ، وباع لهم نفسه على أن يقفوا إلى جانبه ، ويتولوا حمايته ، وحماية عرشه .

اطمأن الإنجليز إلى خيانتهم ، فراحوا يحركونه للضغط على

وزارة « البارودى » ، وضرب الحركة الوطنية ، ولم يخيب أملهم فى هذه الخيانة ، فصار يتلقى الأوامر منهم ، ويتحرك كما يريدون منه ويرسمون له . ضغط بكل ثقله على وزارة البارودى لتستقيل ، ولكنها أبت ، وجمعت مجلس النواب للنظر فى أمر الخديو الخارج على أمته ، وكان مما قرره المجلس فى الثانى عشر من مايو سنة ١٩٨٢ : « إن الخديو إذا استمر على دسائسه مع القنصل الإنجليزى لم يكن مناصاً من محاكمته وخلعه » .

ارتعد الخديو ، وخشى الإنجليز أن يسارع الوطنيون بخلعه ، وكانوا يعرفون أنه مكروه من كل طوائف الشعب ، وأنها سترحب بخلعه ، وإزاحة كابوسه عنها ، وأنهم سيفقدون بذلك الستار الذى كانوا يعملون من روائه للتدخل فى شئون مصر .. جد الإنجليز ، وسيطروا عليه ، وراحوا يعملون معه لضرب عرابى وحركته ، وكانوا يعملون فى طريقين : طريق الخداع والنفاق ، وفيه يعمل الخديو على إحراج « البارودى » ووزير حريته « عرابى » ، بما يستطيع من الرشوة ، والإغراء بالمناصب ، والتخويف من مواجهة الإنجليز ، وقد تأثرت به بعض الصحف ، وانحاز إليه محمد سلطان رئيس مجلس النواب

وبضعة نفر من أعضائه ، وطريقُ القوة ، وفيه ظهر عددٌ من السفن الإنجليزية والفرنسية في مياه الإسكندرية ؛ لإرهاب « البارودى » و « عرابى » ومن معهم من القوى الوطنية ، وكان ذلك في العشرين من مايو ، وبعد أيامٍ من قرار المجلس .

* * *

عرف الخديو أن السفن تغدو وتروح في المياه المصرية ، فقريح ، ولم يَلْمُ نفسه على أنه مهد الطريق لغزو بلاده .. بل فريح ، وانتفخ ، وتشجع ، فأرسل محمد سلطان الذى انحاز إلى جانبه ، يطلب إلى « البارودى » و « عرابى » استقالة الوزارة ، فنظر الزعيمان إليه نظرة الدهشة والاحتقار ، واستعجبا من أن يصبح رسولا للخديو ، وكان يتظاهرُ بالسخط عليه ، ورفضاً الاستقالة . وجرب القنصلان : الإنجليزي والفرنسى أن يتدخلوا في شئون مصر دون وسيط ، فبعثا إلى عرابى ، بأمرانه بمغادرة البلاد ، وكانت ظاهرة غريبة ، شجّع عليها انضمام الخديو إلى الأجانب .. فرفض « عرابى » فى اعتزاز ، وسارعت الوزارة ، فعقدت اجتماعاً ضم أعضاءها وأعضاء مجلس الثورة ، وأقسموا

جميعًا على المصحف والسيف قسم الوقوف إلى جانب الثورة ،
والوفاء لمبادئها ، وكان القسم أمام الشيخ « محمد عبده » الذى
عُرف بمناصريها ، والكفاح مع أعضائها .. وتعاهدوا على مقاومة
التدخل الأجنبى ، وإن أدى ذلك إلى الحرب المسلحة ..

(٨)

عرايى ومقاومته الحرية للدخلاء

استمر الإنجليزُ فى العمل على تصيُّد العبل التى تبررُ تدخلهم المسلَّح ، فعاد القنصلُ الإنجليزى ، وقَدَّم مع القنصل الفرنسى مذكرةً ، يطلبان فيها أن تسقط الوزارة ، وأن يُنْفى أحمد عرايى ، وأن يُتَّعَد على فهمى وعبد العال حلمى من القاهرة ، وتُحدَّد إقامتهما فى الريف .

وتلقى « البارودى » المذكرة ، فرفضها هو وأعضاء وزارته ، ولكن الخديو قبلها ، وكأنه لا يحس أنه فقد سلطته وكرامته ، وأن الإنجليز وضعوه فى جيوبهم ، فأصبحوا يفرضون ما يشاءون عليه ، ولا يتكلمون حتى باسمه .

وكان الموقف يفرض على الثورة خلع « توفيق » ، وتولية عرايى ، ولكن نبأ البطل وترفعه عن أن يقال إنه يعمل لنفسه من ناحية ، وما يجرى أمام بصره من لعب الإنجليز بالخلافة فى تركيا

والخديو والأجانب في مصر من ناحية ثانية ، وخشيته من أن تشيع
الفوضى في البلاد من ناحية ثالثة .. كل ذلك منعه أن يفكر في
العرش الذي شوّهه توفيق بذلته ومهانته .

استقال « البارودي » ، وأبى عرابي ، فلم يهتز أو يتزعزع ،
وصرح هو وزملاؤه أنهم لن يستقيلوا إلا بأمر من مجلس النواب .
وعندئذ ازداد الخديو المتردد حيرة ، وسارع إلى حلفائه الإنجليز
يسألهم : ماذا يصنع ؟ فقدموا إليه « مصطفى فهمي » لئسند إليه
الوزارة ، ولكن هذا أبى وأشفق منها ، فرجعوا إلى « شريف » ،
ولكنه اعتذر ، وتقدم توفيق ليتولى رياستها ، ولكنهم منعوه ،
لأنهم يعرفون فيه أنه ضعيف ولا يستطيع أن يواجه أبناء مصر
الأحرار في الجيش وخارج الجيش . هزناً استقالة « البارودي »
أنحاء البلاد ، فغلت النفوس ، وصارت فوق بركان من الغيظ على
الخديو ومن معه من الخونة ، وهتف جمع من الضباط بزعماء
الثورة :

« اعزلوا الخديو الذي دعا الأجانب للتدخل في أمرنا وتهديدنا
بأساطيلهم » . وأفتى بعض العلماء بخلعه ، وذهب إليه وفد من
قناصل الدول الأجنبية يحذرونه الخطر على مصالحهم إذا أبعد

عرايى عن الوزارة ، وسارع إليه الأعيانُ برياسة محمد سلطان الخارج على الثورة يطالب بإبقاء عرايى حتى تهدأ النفوسُ الثائرة الساخطة .

حنى الخديو رأسه ، ولم يمانع سادته الإنجليز أن يحنيه مؤقتا ، وأسند إلى « عرايى » إدارة شئون البلاد ، وجدَّ البطل ، فقضى على الفوضى التى كادت تهددها ، وكان الإنجليز يحبون أن يتخذوا منها مبررا للنزول بأرضها .

لم ينجَل « توفيق » من الذلة التى لحقته بإرغامه على إعادة عرايى ، ولم يستجِ القنصلُ الإنجليزى الذى عجز عن أن يأتى بوزارة جديدة تعمل على إزاحة عرايى وإخفاء وجهه عن عيون الناس ، كما عجز أن يجد مبررا للتدخل .. وكان شديد الصفاقة ، كما يقول عنه أحد الأجانب :

« لو أن هذا القنصلَ كان على شيء من الشعور بكرامة النفس لاستعفى من عمله ، ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظة على كرامة نفسه ، وإنما كان يريد إحداث التدخل المسلح » .

توهم بعضُ الناس أن الخديو قد تأثر بألم الصّفعات التى انهالت عليه من الشعب ورجاله الأحرار ، وأنه ربما أفاق ، ومَلَّ الجرى

وراء القنصل الإنجليزى ، ولكن كلا منهما تظاهر بالصمت وهو يعمل فى الخفاء .. الخديو يحتال ليدفع من يستطيع من المصريين إلى خيانة عرابى والتخلى عن ثورته ، والقنصل يهيب نفسه وبلاذه للهجوم المسلح على مصر .

وفجأة نشبت فى الإسكندرية معركة بين « مالطى » ومصرى ، فى الحادى عشر من يونيه سنة ١٩٨٢ ، قُتل فيها عدد غير قليل ، أكثرهم من الغرباء . وعندئذ تصايح الخونة بأن حياة الأجانب فى خطر ، وأن وزارة عرابى عاجزة عن حمايتهم ، وعن إقرار الأمن فى البلاد ، وأحب القنصل أن يتخذ ذلك مبررا للتدخل المسلح ، ولكنه لم ينجح ؛ لأن أصابع الاتهام كانت تشير إليه وإلى الخديو وأذنا به ، دالة على أنهم من وراء هذه المؤامرة . لم يتوقف القنصل عن محاولاته ، ولم تهدأ بلاده ، بل جدت فى تمهيد الطريق لدخول مصر ، خادعت الدول الأجنبية ، فزعمت لها أنها تحافظ على ديونها ومصالحها فى مصر ، وطلبت إليها أن تعتمد عليها فى ذلك ، فتركت الأمر لها ، ثم التفتت إلى فرنسا تخادعها حتى تزيج سفنها من المياه المصرية ، بعد أن ظفرت منها بما تريد ، وانتفعت بمساندتها فى كل موقف ، واستعانت بأسطولها فى

المظاهرة البحريّة أمام الإسكندرية لإرهاب عرابى والثائرين معه ، وعرفت فرنسا ، ولكن بعد أن نجحت الحيلة ، ثم تحوّلت إلى الخلافة فى تركيا تُخَوِّفُها من عرابى وحركته ، وكانت حريصةً على أن تشدّها إلى جانبها من ناحية ، وتبعدّها عن مصر من ناحية أخرى ..

وحانت الفرصة التى كانت إنجلترا تنتظرها منذ أمد بعيد .. الجوّ خلاها ، والخبديو فى يدها ، يحاربُ وطنه معها ، ويناشدُها أن تسرع فى العمل لإنقاذ عرشه ، وبعضُ الخونة قد انضموا إليه وإلى الأجانب ، والخلافة غارقة فى هزائمها ومشكلاتها ، وعرابى وزعماء الثورة يرون ذلك كله ، ويستعدون لمواجهة .

وبدأ العمل السريع .. أشار القنصلُ الإنجليزى على الخديو فى الثالث عشر من يونيه سنة ١٩٨٢ أن يسافر إلى الإسكندرية ؛ ليكون فى حماية السفن الإنجليزية ، وقام بترحيل الأجانب منها ، حتى يأمنوا أخطار المعركة التى توشك أن تبدأ ، ثم عاد فأشار على الخديو أن ينتقل من قصر التين الذى نزل به إلى قصر الرمل ، ليكون بعيداً عن نيران الحرب ، قريباً من سفن الإنجليز . واستعدَّ قائدُ الأسطول الإنجليزى ونظر إلى المواقع المصرية على الشاطئ ،

فرأى الجند ينظمون مدافعهم ، فهدد قائد حامية الإسكندرية ،
وأذره بأنه إذا لم يكف عن تحصين هذه المواقع فسيضرب المدينة
بمدافعه ، وكان من أسخف المبررات للحرب أن يهدد العدو
بالضرب إذا حاول المدافعون حماية أنفسهم ، ولكنه نظام الغابة ،
وشريعة المعتدين الغاشمين .

وصمم قائد الأسطول أن يتفد ما هدد به ، وحدد لذلك
صباح اليوم الحادى عشر من يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان الخديو
معه على الطريق .

رفضت مصر قبول الإنذار ، وهبت لتقف من وراء ابنها
وزعيمها عرابى فى وجه الإنجليز والخديو الذى يساعدهم على
احتلال البلاد . سأله أحد رجال الجيش :

— ما مصير الإسكندرية ؟

فأجاب : ستين سنة .. وهز كتفيه

— : لكن السكان سيحرقونها ..

— : فلتُحرق المدينة جميعا ، ولا تبقى فيها « طوبة »

على « طوبة » .. حرب بحرب .. كل الذى يقع

على رأس عرابى وعلى رعوس الفلاحين ..

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم الموعود ضُربت الإسكندرية ، وانهاالت عليها القذائف ، ولكن الدفاع المصري ردَّ بعنف ، وثبت بمدافعه القديمة أمام مدافع الأسطول الحديثة القوية ساعةً بعد ساعة . وكان الخديو كما يسجل تاريخه الأسود يهروُل إلى سطح قصر الرمل ؛ ليَطمئنَ إلى نجاح حلفائه في قصف المدينة وإسكات مواقعها الدفاعية .. وراعَه أن أهلها قد انضموا إلى الجند ، ودافعوا عنها دفاعَ الأوفياء الشرفاء ، حتى سكتت المدافع المصرية .

وكان الخديو يظن أن البطل سيسلم ، وأن الإسكندرية لن تقف معه ، ولكن خاب ظنه ، ففكر في خدعةٍ يسلمه فيها إلى الإنجليز ليقتلوه ، وأمره بلقائهم في منطقة « العجمي » بالإسكندرية . وعرف عرابي الخدعة ، فلم يقع في الفخ ، وعزله الخديو فلم يتخاذل ، ولكنه وجد نفسه بين خطتين : إما الاستسلام الذليل ، أو الحرب الكريمة ، فاختر الثانية ، وأسرع إلى « كفر الدوار » يُحصنُ مواقعه بها . ورأت الأمة ذلك منه فهبت لمناصرته ، في صورة شعبية رائعة ، لم يشهد تاريخ مصر لها مثيلا .. اجتمع عظماء مصر في جمعية عمومية ، ضمت بعض

الأمراء ، والأعيان ، والعلماء ، وبطريك الأقباط ، وحاخام اليهود ، وقررت هذه الجمعية عدم الاكتراث بكلام الخديو ، أو الاعتراف بعزله لعرابي .. وأفتى كبار رجال الدين بانحرافه عن الإسلام ، وجل عصيانه .. ووضع الجيش قواته رهن إشارته ، وبادرت المديرية لتكون طوعاً أمراً ، وتهافت عليه المتطوعون ، وانهالت عليه معونات الشعب من كل مكان .. وكان أشبه بالمعجزات أن يكون جيشه ، ويكفل له أقواته ومطالبه ، بغير قرش من خزانة الأمة ؛ لأن الوالي الذي أصيبت به يحاربها ، ويقف ضدها .

وحارب عرابي في « كفر الدّوار » ، فرد هجمات الإنجليز ، وكبدهم خسائر فادحة ، كما حارب في « التل الكبير » ، ووقف في وجههم وقفة صلبة ..

وكان ينتظره النصر ، ولكن هزمته العهود الكاذبة ، والغفلة الغبية ، والخيانة الوضيعة الأليمة ، .. عاهد الفرنسيون على أن تكون منطقة القنال خالية من الحرب ، حتى لا تتوقف الملاحة في القناة ، ونظر ، فوجد السفن الإنجليزية تدخلها ، وتصب نيرانها على قواته ، واطمأن إلى أن الخليفة في تركيا يقف إلى

جانبه ، ثم صدمه هذا الخليفة بغفلته ، فأصدر تحت ضغط الإنجليز وخداعهم بياناً بعصيان عرابي . وتلقف الخديو البيان ، فنشره بين الجند ، وفي صفوف الجيش ، وأخيراً تعرض لغدر قواده الذين باعوا نفوسهم للخديو والإنجليز ؛ بما قُدم لهم من الرشوة والأموال الخبيثة الباهظة ، ففتح هؤلاء الخونة الطريق لجند الإنجليز في جوف الليل ، فهجموا على عرابي ورجاله ، وكان من أخطر هؤلاء الخونة عبد الرحمن حسن ، وعلى يوسف الشهير بلقب « خنفس » ... وأمام هذه الصدمات رأى عرابي أن يكف عن الحرب ، حتى لا يعرض وطنه للمزيد من ويلاتها .. وحوكم عرابي ، فنفى ، وصودرت كل أمواله .. وظن الجهاد والجاقدون أنه خرج من كفاحه بغير شيء ، ولكنه خرج منه بالكثير الذي سجله له التاريخ في أنصع صفحاته .. فقد سجل له :

.. أنه الفلاح ابن الفلاح الذي ظهر في « هرية رزنة » ، وخرج منها وهو مجهول أو كالمجهول ، وثقف نفسه بنفسه ، وقهر فيها عوامل الخوف والضعف والتردد ، ثم وهبها للكفاح في سبيل مصر ، حتى لمع نجمه في سمائها ، وأحبه أبنائها وتوجته

زعيمًا لها ، وقائدًا لمسيرتها ، وودت لو جلس على العرش مكان الخائن الجالس عليه .

● وأنه القائد الذى نقل المصرى فى الجيش من حياة اليأس والاستسلام إلى حياة جديدة ، شعر فيها بعزته وكرامته ، ودافع عنهما دفاع الأقوياء الأحرار .

● وأنه الزعيم الذى أطلع فى ظلام الريف فجر الحرية ، فصحا الفلاح على نورها ، وأدرك أنه ليس عبداً ، وأن له وجودا وحقوقا ، ونهض ليدافع عن وجوده وحقوقه فى ثورة سمعت بها الدنيا ، وعرفها الناس فى كل مكان.. وأنه المكافح الذى ظهر بفضل كفاحه المتصل معنى الوطنية المصرية والقومية المصرية ، ومهد بذلك للقضاء على كل صور الاستعباد.. وأن ثورته كانت أم الثورات فى تاريخ مصر الحديث ، وكل ما ظفرت به من حرية وعزة وكرامة كان مبنيا على تلك الثورة المبكرة .. بل لعلها قد أثرت فى حياة إفريقية وفى الشرق ، وحقت الكثير مما كان يحلم به عربى فى قوله : « قد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها .. ولعلها فجرت الثورات التى قضت على أحلام

الاستعمار ، وجعلت الإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب
عنها الشمس مملكةً محدودة ، تغيب عنها الشمس كما تغيب عن
سائر الدول على وجه الأرض . وتلك آثارٌ خالدة ، سيظلُّ تاريخ
مصرَ يرويها للأجيال بعد الأجيال .

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا البأس

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| ١ - حافظ إبراهيم | ١١ - محمد كريم |
| ٢ - محمود سامي البارودي | ١٢ - عمر مكرم |
| ٣ - عباس محمود العقاد | ١٣ - عبد الله النديم |
| ٤ - أحمد عرابي | ١٤ - الإمام محمد عبده |
| ٥ - طه حسين | ١٥ - محمد طلعت حرب |
| ٦ - مصطفى كامل | ١٦ - قاسم أمين |
| ٧ - سعد زغلول | ١٧ - الشيخ علي يوسف |
| ٨ - علي مبارك | ١٨ - سليمان الجوسقي |
| ٩ - محمد فريد | ١٩ - عبد الرحمن الكواكبي |
| ١٠ - جمال الدين الأفغاني | |

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الثن ١٠٠ قرش

Bibliotheca Alexandrina



0693115